



كشفت الولايات المتحدة عن وجهها وخياراتها وانحيازاتها في سوريا: لا للشعب السوري نعم لبشار الأسد، لا للسعودية وتركيا نعم لروسيا وإيران. لعبة الأمم وموازين القوى تنتصر للظلم في سوريا. الأولوية لمحاربة الإرهاب، كما يقولون. لكن، مع «حل سياسي» كالذي طبّخه «تفاهمات كيري - لافروف»، لا تسألوا غداً لماذا هناك تطرف، ومن أين يأتي، لأن تلك «التفاهمات» تؤسس لتوها إرهاب «ما بعد داعش».

شطبت أمريكا يوم 23 كانون الثاني (يناير) 2016 كل ما قاله مسؤولوها، بدءاً من باراك أوباما، عن النظام الذي فقد شرعنته، والأسد الذي يجب أن يتنحّى، وأن يرحل، ولا مستقبل له... بل شطبت «بيان جنيف». لم يعد له وجود، كما أراد الروس، وكما أراد الإيرانيون. أسقطت الغموض والأوهام التي اكتنفت «بيانات فيينا»، وسلمت للتفسير الروسي للقرار 2254 الذي تلاشت مرجعيته لأي مفاوضات، فـ«الحل السياسي» المزعوم، وفقاً لإملاءات جون كيري على المعارضة، يعود إلى مشيئة النظام وزمرته وـ«معارضته» المزيفة وـ«النقط الأربع» الإيرانية وأنياب «الدب الروسي». تلك كانت حصيلة «عملية فيينا» التي ترافقت باللزمه القائلة أن أمريكا لا تزال مختلفة مع روسيا على «رحيل الأسد»، غير أن لقاء كيري مع المعارضة في الرياض أظهر أن أمريكا وروسيا اتفقا أخيراً، لكن على «رحيل الشعب السوري».

إذأ، فلا حل بل مجرد دعوة للاستسلام وعرض للإذعان يكلفان المزيد والكثير من الدم والدمار. وما جاء به كيري إلى المعارضة هو تهديد بـ«جسم عسكري» لن تتدخل الولايات المتحدة للجمه ولن تساعد على مواجهته، أي أنها موافقة عليه ومساهمة فيه. لم تكن هناك أي سياسة في كلامه، بل إبلاغ فاقع الواقعه بأن أمريكا حسمت خياتتها بالانقلاب على الشعب

السوري، وليس لديها أي ضمانات له. فلا «انتقال سياسي» ولا «هيئة حكم انتقالي» ولا «حكومة بصلاحيات كاملة»، لا لوم للنظام ولا محاسبة معه إن أفشل المفاوضات، إذا جرت، ولا دعم للمعارضة بعد اليوم سواء ذهبت إلى المفاوضات أم لم تذهب... وذلك كله لا يشكل «شروطًا مسبقة»، في نظر الوزير الأميركي، إذ إنه اتفق مع نظيره الروسي على «مفاوضات بلا شروط مسبقة». لا يمكن أن تكون هناك مقدمات أكثر غرابة بل وحشية لمفاوضات يراد منها إنهاء صراع دام كالذى يدور في سوريا.

لمن لا يزالون يسألون «عما بعد الاتفاق النووي»، ويترقبون مؤشراته متسللين هل ستتغير إيران، جاءهم الجواب مدوياً: أميركا هي التي تغيرت. إلى حد إظهار وجه أكثر قبحاً من ذلك الذي اكتسبته في حقبتها الفيتتنامية. فعلت ما كان متوقعاً منها، فكل الشكوك التي ساوردت الحلفاء والأصدقاء حيال مواقفها تحّققت الآن: لم تكن يوماً من «أصدقاء الشعب السوري»، بل كانت تخادع وتراوغ. اتخذت هذا الشعار ستاراً للتفاوض مع الروس. ولم تكن لديها استراتيجية فانخرطت في استراتيجية موسكو. فعلت ذلك بعد فضيحة السلاح الكيماوي، وكدرته في مختلف المراحل، وواظبت عليه على رغم القطيعة بسبب أوكرانيا. بل خرقت تلك القطيعة فجأة لاستدعاء الدور الروسي إلى أن أصبح تدخلاً مباشراً، وأنه يتوب عنها إلى سوريا.

في الشهور الماضية، قبل لقاءات فيينا، سكتت واشنطن وتركت الروس (وإيرانيين) يديرون الأزمة وحدهم. وإذا تدخلت فلمساعدتهم، لا لمعارضتهم، أو حتى لتحسين عروضهم. وقد ركز الروس (وإيرانيون) على مصادر مهمة المبعوث الدولي ستيفان دي ميستورا وتوجيهها، وسط تجاهل أميركي تام لكون المبعوث حسم قناعاته الشخصية لمصلحة وجهات نظر النظام روسيَا وإيران، ولم يعد يرتاح إلى ما يسمعه في الرياض أو في أنقرة والدوحة. وعندما أدى أوباما بأرائه الساخرة عن المعارضة، كان يعلم أن دي ميستورا في صدد تغيير خريطة المعارضة المقبولة روسيَا (وإيرانياً) في المفاوضات، معولاً على مشاورات طويلة أجراها خلال الربع الماضي في جنيف، مع هيئات وشخصيات سورية أفضت به إلى اعتبار أن ما تُسمى «معارضة» هي جزء يكاد يكون «هامشياً» في الصراع لولا الفصائل المقاتلة التي كانت آنذاك ماضية في انتزاع مناطق من سيطرة النظام، وأن أي مفاوضات يجب أن تشمل طيفاً أوسع مما يقدمه «الائتلاف» أو «هيئة التنسيق» ليضم «مفاوضات» موسكو والقاهرة وأستانَا (казاخستان).

لذلك جاء الروس مصممين، منذ بداية تدخلهم، على ضرب الفصائل المقاتلة وإقصائها من المعادلة. كان مفترضاً أن يأخذوا في الاعتبار ما عناه حضور مندوبين عن هذه الفصائل مؤتمر الرياض، إذ جاء معيّراً عن استعدادهم للانخراط في حل سياسي، وعن إرادة الدول الداعمة للمعارضة إنهاء الصراع سلمياً. لكن اغتيال زهران علوش، قائد «جيش الإسلام»، والاغتيالات الأخرى التي أعقبت ذلك المؤتمر، واستمرت مع صدور القرار 2254 وبعده، أوضحت أن الروس يريدون استفزاز المعارضة العسكرية ودفعها إلى الانسحاب من أي عملية تفاوضية، وبالتالي ترك المعارضة السياسية وحيدةً ومستضعفَةً وعرضةً للضغوط والعبث بوفداتها و موقفها، سواء من خلال دي ميستورا أو بالشروط الروسية التي أكد كيري الموافقة الأميركيَّة عليها.

منذ البداية، قررت روسيَا وإيران والنظام أن لا مجال لأي منطق في الأزمة السورية، والألاعب التي تخاض حالياً تقاد تضع المفاوضات في مهب الريح، لأن التدويل في فيينا ثم في مجلس الأمن لم يقدِّم ولم يؤخِّر بل أبقى الأزمة في كنف استبدادية الأسد. والواقع، أن المعارضة اعتبرت المناورات الروسية - لاختراق وفد المعارضة أو استباط وفد «عارض» ثانٍ، لتصبح المفاوضات ثلاثة شكلياً أو بالأحرى ثنائية بين المعارضة ووفدِي النظام و«معارضته» - هي وصفة مكشوفة للتلاءب المبكر بمسألة «الانتقال السياسي»، وبالتالي لإفشال المفاوضات والمصادر المسبقة لنتائجها، طالما أن الضغط الدولي، خصوصاً الأميركي، ينذر أن يلعب لمصلحة المعارضة، وبهجهس دائمًا بإرضاء الروس، سواء بذرعة الأولوية

لمحاربة «داعش»، أو بدعواعٍ أخرى تتكشف بين حين وآخر عن نيات واشنطن.

اتضح الآن، أن تحليل المعارضة هذا لمواقف روسيا كان سانجاً إلى حدٍ ما، وفيه مراهنة ضمنية على «صلابة» ما في الموقف الأميركي. لكن كان هناك من يردد باستمرار «فتّش عن التفاهمات الأميركيّة - الروسية»، محذراً دائماً من وجود حلقة مفقودة لا بد أن تظهر في لحظة حاسمة. تلك اللحظة كانت اقتراب استحقاق التفاوض. فطوال الأسابيع الماضية لم يكن ممكناً أن تتصرّف موسكو إلى هذا الحدّ ضد القرار الدولي 2254، وأن ترتكب مباشرة مجازر يومية في حق المدنيين في مناطق المعارضة، وتؤمن تغطية كاملة للحصارات التجويعية والقصف بالبراميل، من دون أي اعتراض الأميركي، لأن عدم الاعتراض هنا على تفاهمًا وموافقة. لم يكن صحيحاً على الإطلاق أن هناك اختلافاً حقيقياً بين نظرتي الأميركيين والروس إلى الفصائل المقاتلة وتمييز «المعتدلة» منها عن «الإرهابية». كان تقويمهم متقارباً، ومتطابقاً أحياناً، إذ عدوا معاً إلى استخدام التجويع وسيلة للضغط لانتزاع تنازلات مسبقة من المعارضة قبل ولو جها في التفاوض.

هذا ما تولاه الوزير كيري، باسم «التفاهمات»، عندما أندى المعارضة بأن خيارها الوحيد هو الذهاب إلى مقاومة خاسرة مسبقاً في جنيف، قد تصبح خاسرة أكثر، بل كارثية إذا قادها الانفعال إلى تعطيل المفاوضات. ثم قيل للمعارضة أن بين الخيارين السيئين، يبقى دخول المفاوضات أقلّهما سوءاً، لأنها ستجد فرصة لطرح رؤاها ومطالبتها، وأن حضورها وحده سيجرّ النظام نفسه إلى عملية التفاوض التي يكرهها وطالما تهرّب منها، وعندئذ فقط فيما تستطيع واشنطن أن تساعدها، أما إذا قاطعت فستؤدي خدمة للنظام وتضع حدّاً لأي دور الأميركي قد يخفف من إجحاف الشروط الحالية. سبق أن قيل ذلك للفلسطينيين كي يُقبلوا على التفاوض، وقد فعلوا على رغم أنهم كانوا متيقّنين بأن الأميركيين سيخذلونهم، وهو ما حصل. لكن الشعوب التي يحاصرها الظلم من كل جانب لا تستطيع أن تفوّت أي فرصة مهما بدت سرابية وكاذبة.

الحياة اللندنية

المصادر: